

## فن الرسائل في الأدب الجزائري القديم

د/ فاطمة دخية

جامعة بسكرة-الجزائر

### ملخص:

إن البناء السردي محكوم بمفارقات زمنية لها قيمتها الجمالية في العمل السردي والذي كان له دور في تطوير الأحداث التي أسهمت في الحفاظ على تماسك وانسجام النص السردي.

### Résumé :

cette dernière liée par la temporalité, et avec son coté es-thétique, avait son rôle à jouer dans le développement des évènement afin de construire la cohérence du texte narratif.

### الكلمات المفتاحية:

رسالة - الزمن - المكان - الشخصيات - الوقفة الوصفية - الديمومة.

### تمهيد:

اتسم النثر الجزائري القديم خلال العهد العثماني بمميزات خاصة أهمها ضعف الأدب وانتشار ظاهرة الصوفية واضطراب الحياة الاجتماعية وعدم استقرار الحالة السياسية، وهذا ما أدى إلى ضعف النثر؛ إلا أنهم لم يهملوه؛ بل أقبلوا عليه وألغوا فيه وظهرت المقامة والرسالة والخطابة والإجازة والمقاطع الوصفية وبعض الشروحات الأدبية والتقاريط.

## 1- تعريف الرسالة:

أ/ الرسالة لغة: «راسله مراسلة، فهو مراسل ورسيل والترسل كالرسل والترسل في القراءة، والترسيل واحد، قال: وهو التحقيق بلا عجلة وفي موضع ثان قال: الترسل من الرسل في الأمور والمنطق كالتمهّل والتوقّر والتثبّيت، وجمع الرسالة الرسائل.

والإرسال: التوجيه، وقد أرسل إليه، والاسم الرسالة، والرسالة والرسول والرسيل، الأخيرة عن ثلعب، وأنشد: لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بليلي، ولا أرسلتهم برسيل، والرسول بمعنى الرسالة، ويؤنث ويذكر، فمن أنث جمعه أرسلأ. قال الشاعر: قد انتهى أرسلي.

ويقال: هي رسولك وتراسل القوم: أرسل بعضهم إلى بعض والرسول، الرسالة والمرسل، وأنشد الجوهري في الرسول الرسالة للأسعر الجعفي:

أَلَا أُبْلِغُ أَبَا عَمْرٍو رَسُولَ      بِأَنِّي عَن فَتَا حِكْمٍ<sup>(1)</sup> غَنِيٍّ

وفي التنزيل العزيز ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(2)</sup>، ولم يقل رُسل لأنه فعولا وفعيلا يستوي فيها المذكر والمؤنث والواحد والجمع مثل عدو وصديق، والرسل: اسم من أرسلت وكذلك الرسالة<sup>3</sup>، وفي ذات السياق يقول أبو عبيدة: «رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا، إنا ذوو رسالة رب العالمين، قال الهذلي: أَلِكُنِّي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُولِ أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الخَبَرِ». <sup>(4)</sup>

## ب/ الرسالة اصطلاحياً:

نجد أن الترسل يأخذ معنى كتابة الإنشاء، وفي ذلك يقول القلقشندي «فأما كتابة الإنشاء، فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف كلام، ترتيب المعاني من المكاتبات، والولايات والمساحات والإطلاقات، ومناشير الإقطاعات، والهدن والأمانات والإيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم وغيرها». <sup>(5)</sup>

وقد عرف مدلول (رسالة) في العصر الجاهلي مدلولاً خاصاً؛ إذ كان يُراد به ما يرد عن طريق رواية الخبر والإبلاغ الشفوي؛ مما جعله يقترن غالباً بكلمة (أبلغ) وما يُشتق منها، والذي يدل على النقل الشفوي والرواية، من ذلك ما ورد في شعر أوس بن حجر. <sup>(6)</sup>

يَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضَتْ فَبَلَعَنَّ      يَزِيدُ بِنُ عَبْدِ اللَّهِ مَا أَنَا قَائِلٌ<sup>(7)</sup>

لقد استمر هذا اللفظ (أبلغ) طيلة العصر الجاهلي والإسلامي، وكان يُطلق على التبليغ الشفهي ونقل الخبر عن طريق الرواية الشفوية.

## 2- تطور أدب الرسائل:

استخدم العرب الرسالة في الجاهلية وذلك لأغراض سياسية وتجارية، لكنهم لم يستعملوها في أي مجال أدبي نتيجة اهتمامهم بالتجارة والريخ والحروب، فلم يكن لهم وقت للإبداع هذا من جهة. أما من جهة أخرى، هو جهل أغلبهم بطرق الكتابة لأن غالبية العرب في العصر الجاهلي، اهتموا بالشعر والخطابة والتأثير على عقول الناس باعتبارهما وسيلة من وسائل الاتصال، وهذا لا يعني أن العرب لم يعرفوا فن الرسائل، وإنما هناك رسائل كانت تُرسل إلى الملوك لتبادل الهدايا، وكانت هذه الرسائل تتمحور حول طلب العون والنصرة ضد عدو يتهددهم ككتاب السموأل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يوصي بـ امرئ القيس) الشاعر ليساعده في الوصول إلى قيصر الروم<sup>(8)</sup> وكتاب (قصي بن كلاب)<sup>(9)</sup> إلى أخيه (رزاح بن ربيعة بن حرام العذري) يدعوه إلى نصرته، وهذا ما يدل على نشاط الكتابة في هذا العصر.

ومجيء الإسلام الذي غيّر مجرى الحياة العربية فاتخذ الكتابة دعامة من دعائمه، حيث أن أول آية نزلت على الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾<sup>(10)</sup>، وأقسم سبحانه وتعالى بالقلم، فقال جل وعز في محكم تنزيله: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾<sup>(11)</sup>. وبهذا فقد حرص المصطفى (صلى الله عليه وسلم): على أن يعلم أمته الكتابة والقراءة فجعل فداء كل أسير من أسرى قريش في غزوة بدر الكبرى تعليم الكتابة والقراءة، لعشرة من رجال المسلمين<sup>(12)</sup>، كما استعملوا ألفاظا من القرآن الكريم في كتاباتهم.

أما بالنسبة للعصر الأموي، فقد ازدهرت فيه الكتابة نتيجة اهتمام الخلفاء بها، فقد استخدموها في مراسلة الولاة والملوك والحكام، وقد تنوعت موضوعاتهم نتيجة تأثرهم بالعديد من الثقافات كالثقافة اليونانية والفارسية، والهندية، فظهرت الرسائل السياسية والاجتماعية والدينية والشخصية. وابتدأنا إلى العصر العباسي (العصر الذهبي) نجد الكتابة الأدبية قد لاقت اهتماما من الحكام والعامّة من الناس وانصب ذلك الاهتمام خاصة على العلوم والآداب وظهرت الرسائل الإخوانية والديوانية، وتميزت الرسائل في هذا العصر بحسن الصياغة والمعاني المعبرة والكلمات ذات التأثير الكبير.

## ● الرسائل الإخوانية

هي الرسائل التي يكتبها الأدباء في شتى المناسبات وقد كانت كتابتها في أوائل حكم بني العباس وامتدت إلى أواخر عهد بني أمية، وقد برز فيها عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والقاسم بن صبيح وعمارة بن حمزة ونظراؤهم.

## 4- أدب الرسائل في الجزائر خلال العهد العثماني:

لم تنشط الحركة الأدبية في الجزائر خلال هذا العهد لأسباب كثيرة «فالولاة لا يفقهون العربية ولا يتذوقون أدبها؛ بالإضافة إلى ضعف مستوى الثقافة وإلى منافسة اللغة التركية، أما الجزائريون الطامحون إلى المزيد من العلم والأدب فقد اختاروا طريق الهجرة إلى حيث يجدون الرعاية الاعتراف بإننتاجهم وفضلهم».<sup>(13)</sup>

لكن ولحسن الحظ بقيت الوثائق تحفظ لنا نماذج من هذه الرسائل الإخوانية والديوانية، ومن ذلك.

## 4-1- رسالة محمد بن محمد القالي إلى محمد بكداش

فهذا محمد بن محمد القالي يكتب محمد بكداش مادحا مستعظفا يشكو إليه حاله؛ حيث يقول: «جل الله تعالى مالك الملك، ومقيم قسطاس العدل بما أَرادَه من اعتزاز السادات الترك، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف، وآثرهم بهذا الملك الكبير، وهذا العز المنيف، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية، وهم أصل للرفعة والتشريف وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار، وجلهم بهذا القطر رحمة للعباد، واخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد، فسلكت بهم السبل وأمنت بهم البلاد، لطفًا منه سبحانه بهذه الأقطار، نسأل الله أن يُبقي جنابهم السعيد عالياً والعناد، فسلكت بهم السبل وأمنت بهم البلاد، لطفًا منه سبحانه بهذه الأقطار، نسأل الله أن يُبقي جنابهم السعيد عالياً على كل جناب، وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار [...]».<sup>(14)</sup>

وبعد هذه المقدمة العامة التي تخص الترك وحكمهم انتقل محمد القالي إلى موضوعه الرئيسي وهو مدح الباشا محمد بكداش والدعاء له ولدولته بالنصر، وأخيرا نخلص إلى غرضه وهو طلب الإعانة والعطايا، وهذه عباراته في هذا الصدد:

«...وبعد فإن الله تعالى منّ على المسلمين سيدنا ومولانا سلطان الملوك والأكابر، المخصوص بأفضل الشرائع والمآثر، والإمام العادل، السلطان الفاضل، العالم العامل، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، الذي أطلعه الله في سماء الجلالة بدرأ، ورفع له في درجات الأمراء قدراً، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناءً جميلاً وذكرأ وأصبح الدين مبهتجاً بكريم دولته، وجناب الكفر معتظماً بعظيم صولته، مولانا وسيدنا محمد خوجاً<sup>(15)</sup> الدولاتي<sup>(16)</sup>. أبقى الله تعالى أيامه وأصبح بالنصر والتمكين ألويته وأعلامه، وهو نصر الله أجل من استعين به فكان خير معين».

وأعطي مفاتيح فتلقاها باليمين، وأفضل من امثل لقوله صلى الله عليه وسلم: (من فرّج على أخيه المؤمن كربة من كرب الدنيا، فرّج الله عليه كربة من كرب الآخرة) إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية؛ حيثما أحاط به علم مولانا، نصره الله من مروي ومنقول.

#### 4-1-1- بنية الزمن

إن للزمن أهمية كبرى، كما أنه من العناصر الأساسية التي يجب أن تتوفر في الكتابة، فإذا تأملنا الرسالة تبين أنّها تتكون من أفكار ثلاث؛ الأولى: وهي المقدمة الخاصة بالحكم التركي والموضوع الرئيسي هو مدح الباشا محمد بكداش، ثم يخلص إلى غرضه، وهو طلب الإعانة والعطايا. لم تعرف الرسالة استقراراً زمنياً، فاستعمل الماضي عندما تحدث عن الحكم التركي؛ حيث يقول: «فانجلت بهم غياب الظلم الحال، عبرة لذي البصائر ونزهة لأولى الأبصار، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الخفيف، وأثرهم بهذا الملك الكبير، وشرفهم بما وعدهم من الرتب العالية... وخصهم بمكارم الأخلاق...»<sup>(17)</sup>

ثم يعود الزمن الحاضر إلى النص؛ حيث يقول: «أن يبقى جانبيكم السعيد عالياً على كل وجناب وأن يخلد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار»<sup>(18)</sup>، ثم عاد إلى الماضي الممزوج بالمستقبل؛ ففي الماضي يقول: «الذي أطلعه الله في سماء الجلالة بدرأً ورفع له في درجات الأمراء بالدعاء»<sup>(19)</sup>.

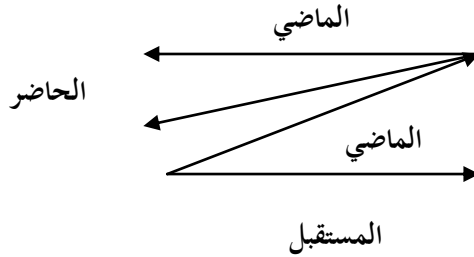
وبعدها تنتقل للباشا محمد بكداش حيث يقول: «أبقى الله تعالى أيامه والخصر والتمكين ألويته وأعلامه، وهو نصره الله من مروي ومنقول: وهو أيده الله»<sup>(20)</sup>

ولو تفحصنا هذه الرسالة لوجدناها تعج بالماضي والحاضر والمستقبل، وهي الأزمنة الثلاثة الملخصة للمحاور الكبرى في الرسالة - في الشكل الآتي:

جدول يوضح أهم الأزمنة الموجودة في الرسالة:

الحدث	الزمن
التحدث عن الحكم التركي	الماضي
التحدث عن الباشا محمد بكداش	الحاضر الدال على المستقبل (الدعاء)
طلب الإعانة	الماضي والمستقبل

فيكون مسار الأحداث في الرسالة مشكلا الترسيم البيانية الملخصة للأزمنة والتي استوحيناها من كتاب الباحثة سيزا قاسم.<sup>(21)</sup>



شكل يوضح أهم الأزمنة المتوفرة في الرسالة

#### 4-1-2- الحركة الوصفية: (Descriptive)

«وهي تقنية سردية تقوم على الإبطاء المفرط في عرض الأحداث لدرجة يبدو معها وكأن السارد توقف عن التنامي، مفسحا مجال أمام السارد لتقديم الكثير من التفاصيل الجزئية على مدى صفحات وصفحات»<sup>(22)</sup>

فكثيرا ما كان القالي يستخدم الوقفات الوصفية فيوصف شخصيته فنجده يقف فترة من الزمن لإيضاح ملامح شخصية البطل؛ إذ يقول «الإمام العادل السلطان الفاضل، العالم العامل صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين...»<sup>(23)</sup>.

فتظهر لنا هذه الوقفة الوصفية دقيقة لتجع لنا نقف أمام الموصوف فتخيّل الصورة التي يحاول الراوي بثها وتقديمها للقارئ بتلك التفصيلات الدقيقة.

## 4-1-3- المکان

يعتبر المکان من أبرز الضروريات في الخطاب السردي، فهو مکان جوهری لا يقل أهمية عن الزمن والشخص، وله دوره المهم في الحفاظ على تماسك وانسجام أحداث النص السردی. إلا أن هذه الرسالة لم يرد فيها المکان بصورة جلية واضحة إلا ما ورد في أبيات شعرية ختم بها القالي رسالته، وهي عبارة عن مدح وثنا للباشا محمد بكداش، حيث يقول:

أَهْلُ السَّخَا فِي الْوَرَى نُجُومٌ      وَأَنْتَ مِنْ فَوْقَهُمْ سَمَاءٌ  
سُلْطَانُ كُلِّ الْكِرَامِ جَمْعًا      فِي بَابِكَ الْخَيْرُ وَالْعَطَاءُ<sup>(24)</sup>  
أَيَا قِبْلَةَ الْأَمَالِ يَا حَرَمَ النَّدَى      وَيَا كَعْبَةً مَا خَابَ سَاعِ نَوَالِهَا  
إِلَى بَيْتِكَ الْمَعْمُورِ قَدْ جِئْتَ قَاصِدًا      فَلَا بَرِحْتَ أَيْدِيكَ تُؤَلِّي نَوَالِهَا<sup>(25)</sup>

فقد وظف الكاتب بعض الأمكنة كالسماء من باب التذليل على التأمل والتفكير في ملكوت الخالق عز وجل باحثاً عن أسرار الخلود والجمال فيها.

كما وظف القالي الكعبة وهي قبلة المسلمين ومزار الأنبياء والرسل، وهي من الموروث الديني، وهذا الفضاء الذي يحمل جماليات تجعل الروح والحواس تسمو إلى آفاق عليا من الشعور والراحة. أما الفضاء الثالث فينقلنا إلى البيت الذي كان مقصدا لكل سائل ومحتاج، وهو مكان للكرم والجلود والضيافة.

## 4-1-4 - الشخصيات

استعان الكاتب بشخصيتين في كتابة رسالته؛ فالشخصية الأولى متمثلة في الأتراك، وهي الشخصية المساعدة في بعث النص السردی، ودفعه لتحقيق رؤى أفكاره الأساسية، فعبّر عن هذه الشخصية قائلاً: «السيادة في الترك ومطلع أعمارهم السعيدة في آفاق المعالي فاجلجت بهم غياهب الظلم الخالِك عبرة لذوي البصائر ونزهة لأولى الأبصار جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف..»<sup>(26)</sup>

أما عندما تحدث عن الشخصية الرئيسة والمتمثلة في محمد بكداش فوصفه بعدة مزايا ومناقب مستقاة من القرآن الكريم، والحديث الشريف قائلاً: سلطان الملوك الأكابر المخصوص بأفضل

الشمائل والمآثر الإمام العادل السلطان الفاضل صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام المسلمين...»<sup>(27)</sup>

فقد كانت هذه الشخصية فاعلة ومحركاً مهماً في سيرورة الأحداث، وبهذا نستطيع القول إنها الشخصية الرئيسة ومحور الأحداث والحركة وبؤرة التجربة. وإذا كان القالي في رسالته قد اهتم بالزمن والشخصيات والمكان؛ إلا أنه لم يعطهم حقهم الكافي من التوظيف.

4-2- رسالة عبد الكريم بن فكون<sup>(28)</sup>، إلى معاصره بالمشرق شهاب الدين أبي العباس احمد المقرئ؛

جاء في نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن (وإنك لعلی خُلُقٍ عظیم) وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم، من مدنس الإزار المتسريل بسرايل الخطايا والأوزار، الراجي للتوصل منه رحمة العزيز الغفار عبد الله عبد الكريم بن محمد بن فكون أصلح الله بالتقوى حاله، وبلغه من متابعة السنة النبوية آماله، إلى الشيخ الشهير الصدر النحرير ذي الفهم الثاقب والحفظ العزيز، الأحب في الله، المؤاخي من أجله سيدي أبي العباس أحمد المقرئ أحمد الله عاقبتني وعاقبته، وأسبل على الجميع عافيته، أما بعد فإني أحمد الله إليك وأصلي على نبيّه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، ولا أريد إلا صالح الدعاء، وطلبه منكم، وإني أحوج الناس إليه، وأشدّهم في ظني إلحاحاً عليه، بما تحققت من أحوال نفسي الأمانة، واستنبطت دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرارة، كأنها عميت عن الأحوال التي أشابت رؤوس الأطفال، وقطعت أعناق كمل الرجال، فتراها في لجج هواها خائطة،... وهو حسبي ونعم الوكيل.

يَا نُحْبَةَ الدَّهْرِ فِي الدِّرَايَةِ	عِلْمًا تُعَاوِدُهُ الرِّوَايَةِ
لَأَزِلْتَ بَحْرًا بِكُلِّ فَنِي	يَرْوِي بِهِ الطَّالِبُونَ غَايَةَ
لَقَدْ تَصَدَّرْتَ فِي الْمَعَانِي	كَمَا تَعَالَيْتَ فِي الْعِنَايَةِ
مِنْ فَيْكَ تَنْتَظِمُ الْمَعَانِي	بُلُغْتَ فِي حُسْنِهَا النِّهَايَةِ



وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله عليه وسلم، و«كتب بغاية عجلة يوم السبت سابع أو ثامن رجب من عام ثمانية وثلاثين ألف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام»<sup>(29)</sup>.

ما يبدو للوهلة الأولى أن هذه الرسالة بدئت بديباجة ثم انتقل صاحبها إلى طلب الدعاء له لإصلاح

أمره، ثم شكره على مدحه إلى أن وصل إلى خاتمة الرسالة والمتمثلة في مدح أحمد المقرئ من خلال أبيات شعرية.

فنرى هذه الرسالة بمعانيها البسيطة وأسلوبها السهل استطاعت أن تكون ناطقة لهذه النفس المطمئنة الهادئة المفعمة بالخير والمشفعة بالقرآن الكريم الذي زادها جمالا ورونقا.

#### 4-2-1- بنية الزمن

إن الزمن الحقيقي لكتابة هذه الرسالة هو يوم السبت السابع أو الثامن من رجب من عام ثمانية وثلاثين وألف للهجرة، وهو زمن محدد تداخل فيه الزمن بين الحاضر والذي تنطلق منه الرسالة، ثم لا يلبث أن يعود إلى زمن الماضي ثم يعاود الرجوع إلى الحاضر مرة أخرى.

فقد بدأ ابن الفكون رسالته بالماضي الدال على المستقبل من خلال الدعاء كقوله "... أصلح الله بالتقوى حاله، وبلغه من متابعة السنة النبوية آماله..."، ثم الحاضر في قوله «...؛ فالله تعالى يمدكم بمعونته ويمدكم بمعونته و جعلكم من أهل مناجاته في حضرته، ويسقينا منكاسات القرب ما نتمتع منه بلذيذ منادمته...»<sup>(30)</sup> ثم عاد إلى الزمن الماضي مرة أخرى في قوله: «...وكنت عازما...، وصادفتني أيام موت قعيدة...»<sup>(31)</sup>.

فقد اتسمت هذه الرسالة ببعض التلاعبات بالزمن، فهي لم تعرف استقرارا زمنيا، فقد تنقل الكاتب بين الماضي القريب ثم الزمن الماضي عندما تحدث عن الدنيا الغرور التي عمت فيها الأبصار وقطعت أعناق الرجال، ثم ينتقل إلى الزمن الماضي مرة أخرى من خلال حديث ابن فكون عن تأخره في رد الجواب، فهذه الأزمنة الثلاث استطاعت أن تلخص المحاور الكبرى لهذه الرسالة.

أ- الاسترجاع:

ظهر الاسترجاع في آخر الرسالة عندما تحدث ابن الفكون عن تأخره في رد الجواب بسبب المرض الذي أفضده الفراش وذلك بقوله... «: وصادفتني أيام موت قعيدة البيت، فلم يتيسر عاجلا إلا ما ذكر...»<sup>(32)</sup>.

ب- الاستباق

جاء الاستباق في صورة تنبؤ الكاتب بن الفكون بما سيحدث مستقبلا في هذه الدنيا من فضائح، وتجلى ذلك في قوله: «... فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح، وتنتشر الفضائح...»<sup>(33)</sup>.

ج- الخلاصة:

نقف هنا على مختارات شغلت حيزا كبيرا في هذه الرسالة وهي الخلاصة التي أحالتنا على أسرارها ومفاهيمها التي تتضح في بداية الرسالة؛ حيث اطلعنا السرد على موجز خاص لماضي المقرئ وحياته الخاصة باقتضاب دون تفصيل، والغاية من ذلك هي إبراز صفاته النبيلة وتفوقه العلمي «الشيخ الشهير، الصدر النحرير، ذي الفهم الثاقب والحفظ العزيز، الأحب في الله، المؤاخى من أجله.»<sup>(34)</sup>

4-2-2- الوصفة الوصفية:

لقد وظف بن الفكون بعض الوقفات الوصفية في هذه الرسالة، فقد عمد إلى بعض الأبيات والتي هي عبارة عن أوصاف ومن اقبل لمقرئ ختم بها رسالته حيث يقول:<sup>(35)</sup>

يَا نُحْبَةَ الدَّهْرِ فِي الدِّرَايَةِ	عَلَّمَا تُعَاضِدُهُ الرِّوَايَةَ
لَأَزَلْتَ بَحْرًا بِكُلِّ فَنٍ	يُرْوِي بِهِ الطَّالِبُونَ غَايَةَ
لَقَدْ تَصَدَّرَتْ فِي المَعَانِي	كَمَا تَعَالَيْتَ فِي العِنَايَةِ

4-2-3- فضاء المكان

وظف الكاتب بعض الأمكنة التي ساهمت في تطوير أحداث الرسالة كـ "الجنان" وهو من الفضاءات الواسعة التي ترمز لشخصية المقرئ التي يريدتها الكاتب أن تنعم بالاستقرار وأنت تتراح في هذه الأفق الرحبة.

وإذا أضفنا إلى الفضاء المكاني فضاء آخر يحمل في طياته دلالات كثيرة، وهو فضاء البيت المغلق، فلم يركز الكاتب على وصفه؛ بل اكتفى بوصفه أنه كان قعيد البيت. أما الحديث عن البحر في الأبيات الشعرية التي ذيلت بها الرسالة تعبر عن العلم الغزير والآفاق الواسعة هو فضاء مفتوح يرمز للعطاء.

#### 4-2-4- الشخصيات

تزرخ الرسالة بشخصية المرسل إليه وهو المقرري وهي شخصية فاعلة ومحركة لكل الأحداث كما أنها شخصية رئيسة تتربع على عرش الرسالة، متميزة بإسهامها ودورها الفعال في المسار السردى؛ حيث أوكل لها الكاتب عدة مناقب تدل على السمو والرفعة والعزة في العلم والعطاء وسعة العلم، فهو نموذج للعالم البارع المتميز.

4-3- رسالة "ابن هطال التلمساني" المعنونة بـ "رحلة محمد الكبير بأبي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري عام 1785":

إذا كانت جل الرحلات قد تحكمت فيها بواعث دينية أو علمية، فإن رحلة الباي محمد الكبير سنة 1785 إلى جنوب الغرب الجزائري، كانت رحلة رسمية، تحكمت فيها ظروف وأوضاع سياسية كانت توجه الحياة، وتوخت غايات أملتتها الحياة السياسية العامة، فلم تكن رحلة للقيام بسفر، إنما كانت رحلة أمير اضطرارية، مسؤول على بايليك الغرب الجزائري، كان خلالها كاتبها أحمد بن هطال التلمساني، يصاحب الباي محمد الكبير، ويقوم بتدوين كل مراحل الرحلة الرسمية، جاء في الرسالة:

«اعلم أنه لما أصبح يوم الاثنين عازما على ما أراده، قاصدا لما يكمل مراده وكان مصاحبة له في هذه "الحلة"<sup>(36)</sup> قرّة ناظره، وعضد ساعده، صاحب الفخر والامتنان جامع شتات الفضل والإحسان، وارث مجده: ابنه السيد عثمان، فأمره أن يقوم بأمر "الحلة" ويسير بها رائداً من غير عجلة، فأقام يومه ذلك وبالغد ارتحل، ونزل "السيد عبد الرحمان" ومنه نزل القطيعة" وأقام بها لكثرة الأمطار، وشدة الوحل، وارتحل من القطيعة ومر بالبيضاء.

فأمر الناس أن يسقوا دوابهم، ويأخذوا الماء لأنفسهم ففعلوا، ثم جاوزها ونزل بمكان قريب منهما، ثم ارتحل ونزل "الحليات"، وبالغد ارتحل فنزل "مركانه" على يمين واد "سبقاق" بنسبة الذاهب بجهة القبلة، ولما غشيه الليل طمع بعض أعراب تك الجهة في سرقة "الحلة" فاختفت جماعة منهم وصاروا يحتالون على كيفية الوصول إلى الإبل أو غيرها من دواب "الحلة" فإذا ببعض الترك

كشوفهم وحاربوهم فأصابوا واحدا منهم فقتلوه قطعوا رأسه وأتوا به لصاحب "المحلة" السيد عثمان بن سيدنا، فأعطاهم دراهم وشكرهم ثم ارتحل منه ونزل الخير، فاجتمعت المحلتان، والتفت الفريقان فكان يوم عيد وعند كل واحد فرح جديد.

واشدد البرد في هذه الدار ونزل من الثلج ما كانت الناس تظن أن مثل هذا لا يقع في الصحو لتسويتهم بين سهلها وجبالها، مع أن هذا الجبل ذو برد شديد وهو مرتفع جداً، ومياهه كثيرة، فما كان له شبه بجبال التل هو أشد برداً منها في بعض الأوقات، ولما رآه قد كثر، ولم ينقطع خاف منه على الإبل فارتحل وسار أربع ساعات ونزل "قصر أوفل"، فتركه ذات الشمال، ونزل جهته الغربية، وعندما نزلت "المحلة" قصدت القوم هذا القصر لأجل الشعير والقمح وغير ذلك، فوجدوا أهلها هربوا منه ولم يتركوا شيئاً ظاهراً فبحثوا في أماكنه الخفية فبعضهم أصاب، والبعض خاب، وفي هذه الدار قدمت عليه طوائف العرب مثل "أولاد صالح" و"أولاد يعقوب" القبالة "أولاد يعقوب" الغرابة وغيرهم وكلهم أتوا بـ "القادة" طالبين الأمان لأنفسهم متحملين لما فرض عليهم، فجعل على كل قبيلة منهم شيئاً معلوماً من الإبل والخيل وأمنهم، ورفع عنهم ما هم فيه من الخوف والويل». (37)

تطرق "ابن هطال" في ثنايا هذه الرسالة إلى رحلة الباي الكبير التي بدأها في ربيع (1199 هـ) منتصف جانفي (1785م) ودامت أكثر من ثلاثة أشهر.

ما يلاحظ على هذه الرسالة أنها جاءت مختلفة عن الرسالتين السابقتين؛ لأنها وجهت إلى شخصية كبيرة أعلى منزلة من الكاتب وذلك من خلال ما تضمنته من صيغ تعبر عن سمو ورفعة شخصية الباي محمد الكبير، فقد صور الكاتب رحلة هذه الشخصية الغدة التي تنقلت بين عدة بلدان وأمكنته رفقة ابنه وولده كبده عثمان للتكفل بأمور العسكر.

#### 4-3-1- الزمن:

هو من المفاهيم النقدية التي لها أهمية في الدراسات السردية، ومن العناصر الأساسية التي تتميز بها الأعمال الروائية بوصفها التقنيات الخاصة ببنية السرد نجد الزمن قد ظهر من خلال بعض الأزمنة المذكورة في الرسالة (يوم الاثنين، بالغد، فنزل الليل، وبعض الساعات).

لقد تركزت هذه الرسالة على أحداث في حدود زمانية معينة، تكاد تسير على خط مستقيم ومتصاعد يكاد يخلو من تعرجات وانكسارات حادة؛ فالأحداث تتابع بالطريقة نفسها التي تتابع بها على أرض الواقع، فهناك عزم على تسير أمور المحلة، ثم الانتقال إلى عدة أمكنتها منها القطيعة

والبيضاء ، ثم نزل بالخليات، ثم انتقل إلى مركانة إلى أن وصل قصر أوغل، ثم استقر بالمحلة، وفق تسلسل زمني، فابن هطال التلمساني أبدع في سرد أحداث رحلة محمد الكبير وابنه عثمان وهي المحور الرئيسي في هذه الرسالة.

أ- الديمومة: يمكن ضبطها اعتمادا على الحركات الأربع:

• الحذف:

إن هذه الرسالة جاءت مشتملة علت بعض الإضمارات الزمنية والبياضات الدلالية من خلال تسريع هذه الأحداث المتحلية في الأماكن التي مر بها في قوله: «... وارتحل من القطيعة ومر بالبيضاء...»<sup>(38)</sup> أو قوله «ارتحل ونزل "الخليات"، وبالغد ارتحل فنزل مركانة»<sup>(39)</sup>، فلم يسهب الكاتب في الحديث عن هذه الأماكن؛ بل لمح تلميحا عابرا بأنه مر بهذه المناطق.

• الخلاصة:

اطلعنا السرد في بدجاية الرسالة على موجز خاص بالسيد عثمان، والذي تمثل في ذكر بعض مناقبه كقوله: «قرة ناظره، وعضد ساعده، صاحب الفخر والامتنان جامع شتات الفضب والإحسان، وارث مجده»<sup>(40)</sup>

4-3-2- الوقفة الوصفية:

استخدم ابن هطال بعض الوقفات الوصفية، فنحن نعرف أن الأماكن قد تنوعت وتوزعت شأنها شأن الأحداث التي اشتملت على مجموعة من المشاهد الوصفية، فقد عمد إلى وصف القطيعة بقوله: «... وأقام بها لكثرة الأمطار، وشدة الوحل...»<sup>(41)</sup>، وفي قوله: «... واشتد البرد في هذه الدار ونزل من الثلج ما كانت الناس تظن أن مثل هذا ذلك لا يقع في الصحور لتسويتهم بين سهلها وجباها، مع أن هذا الجبل ذو برد شديد وهو مرتفع جدا، ومياهه كثيرة، فما كان له شبه بجبال التل هو أشد بردا منها في بعض الأوقات...»<sup>(42)</sup>.

4-3-3- المكان:

لقد جعل ابن هطال أحداث رحلته في أمكنة متعددة، وقد أسهمت في تطوير أحداثها، يوجب علينا أن نستقصي كل الأمكنة المسيطرة فيها والفضاءات المسيطرة هي: (المحلة، القطيعة، البيضاء، الخليات، مركانة، قصر أوغل، الجبال...)، وقد كان المكان أبرز الضروريات في الخطاب السردى، فهو مكون جوهرى لا يقل أهمية عن الزمن، وله دوره المهم في الحفاظ على تماسك وانسجام النص السردى.

لا ريب أن المتأمل في هذه الرسالة يجدها تفتقد لورود أسماء شخصيات عدا ما كان في بدايتها وهو السيد (عثمان بن محمد الكبير)، وهو شخصية رئيسة مثل هذا الدور بجدارة، وهو بطل هذه الرسالة ومحور الأحداث والحركة، وبؤرة التجارب، وفي المقابل ظهرت شخصيات ثانوية كالأعراب وبعض الترك وطوائف العرب كأولاد صالح وأولاد يعقوب، والقادة؛ إلا أن هذه الشخصيات قد ساهمت في بناء النص السردي.

إن فن الرسائل في الأدب الجزائري القديم كان له دور في تطوير الأحداث التي أسهمت في الحفاظ على التماسك و انسجام النص السردي، كما أن الزمن لعب دوراً هاماً في هذه الرسائل والذي تأرجح بين الماضي والحاضر والمستقبل، وكان للمكان بعداً من الأبعاد الفنية الجمالية في العمل السردي.

### الهوامش

- (1)- ابن منظور، لسان العرب، مادة (رسل)، مج3، ص70/ 71.
- (2)- سورة الشعراء، الآية (16).
- (3)- ابن منظور، لسان العرب، مادة(رسل)، مج3، ص70/ 71.
- (4)- <http://www.aslein.net> تاريخ الزيارة: 2014/10/18، الساعة: 10:30.
- (5)- الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 1، ص54 .
- (6)- أوس بن حجر بن عتاب، قال أبو عمرو بن العلاء كان أوس وحل مطر حتى نشأ النابغة، وزهير فأكملاه، وكان أوس عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 131 الفلقشندي، صبح الأعشبي في صناعة الإنشاء، ج 1، ص 54.
- (7)- أوس بن حجر، الديوان، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط2، (د.ت)، ص99.
- (8)- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق لجنة من الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط5، 1981، مج8، ص76 .
- (9)- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، مج1، ص124.
- (10)- سورة العلق، الآية (01)
- (11)- سورة القلم، الآية (01)
- (12)- محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي، أيام العرب في الإسلام، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا، بيروت، ط4، 1973، ص30.
- (13)- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 179/178.
- (14)- ابن ميمون، التحفة المرضية، ص 172/171/170.

- (15) - خوجة: كلمة تركية معناها المسجل أو الكاتب أو الناسخ أو المعلم الخاص (أنظر: ابن ميمون: التحفة المرضية، ص 171).
- (16) - الدولاتي: كلمة تركية تعني ذو الجلالة صاحب القوة والنفوذ، صاحب السعادة، وتطلق على رؤساء الأتراك وذوي الرتب العالية (أنظر: ابن ميمون، التحفة المرضية، ص 171).
- (17) - ابن ميمون، التحفة المرضية، ص 172/171.
- (18) - ابن ميمون، التحفة المرضية، ص 172/171.
- (19) - المصدر نفسه، ص 171.
- (20) - نفس المرجع.
- (21) - سيزا قاسم، بناء الرواية، ص 31.
- (22) - عبد العالي بوطبيب، مستويات دراسة النص الروائي، مقارنة نظرية، مطبعة المنية، ط1، دمشق، سوريا، الرباط، المغرب، 1999، ص 170.
- (23) - ابن ميمون، التحفة المرضية، ص 171.
- (24) - ابن ميمون، التحفة المرضية، ص 172.
- (25) - المصدر نفسه، ص 174.
- (26) - المصدر نفسه، ص 170.
- (27) - ابن ميمون، التحفة المرضية، ص 171.
- (28) - سيق التعريف به.
- (29) - محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 310/309.
- (30) - محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 304.
- (31) - نفس المرجع، ص 304.
- (32) - محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 309.
- (33) - المرجع نفسه، ص 304.
- (34) - المرجع نفسه، ص 306.
- (35) - المرجع نفسه، ص 310/309.
- (36) - هو الباي محمد بن عثمان الكردي أو الباي محمد الكبير كما هو شائع عنه، رجل من رجال الجزائري العثمانية الذين ساهموا في صناعة تاريخها في أواخر القرن الثامن عشر إذ حكم بابلينك الغرب بصفته بايا من 20 جمادى الثانية 1193 هـ إلى 25 جمادى الأولى 1212 هـ ما يوافق جويلية 1779م إلى نوفمبر 1797م. (<http://ar.wikipedia.org>) ، 2015/03/20، الساعة: 10:20.
- (37) - أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح وتق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، ط 1969، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ص 45/43.
- (38) - محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار الجزائر، المجلد الأول، دار البصائر، دبط، دت، ص 122.
- (39) - محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار الجزائر، المجلد الأول، دار البصائر، دبط، دت، ص 122.
- (40) - المرجع نفسه، ص 123.

- (41) - محمد بن رمضان شاوش والغوتي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار الجزائر، المجلد الأول، دار البصائر، دبط، دبت، ص 122.
- (42) - المرجع نفسه، ص 122